Bible Study

The Epistle of St. Paul to the Philippians

رسالة معلمنا بولس الرسول إلي أهل فيلبي

Fr. Jacob Nadian
St. Bishoy Coptic Orthodox Church

رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي

الاصحاح الأول: الفرح وسط الضيق والألم والموت

"بولس وتيموثاوس عبدا يسوع المسيح، إلى جميع القدّيسين في المسيح يسوع، الذين في فيلبّي مع أساقفة وشمامسة. نعمة لكم، وسلام من الله أبينا، والرب يسوع المسيح" [1 - 2]

- يبدأ القديس بولس الرسالة بتحية كلها تواضع، إذ وهو المعلم وكاتب الرسالة يقرن اسم تلميذه باسمه دون تفرقة أو تمييز، مساويًا تلميذه بنفسه كعبيد للرب يسوع. كما أنه لم يذكر لقبه أنه "رسول" في هذه الرسالة ولا في رسالته إلى أهل تسالونيكي ولا في رسالته إلى فليمون، لأن رسوليته لم تكن موضوع شك لدى المُرسَل إليهم. وقد أشار إلي الشعب كله ودعاهم **"جميع القديسين في المسيح يسوع"** لكي يميزهم عن اليهود الذين يذكرون أنهم فقط **"أمة مقدسة" (خروج 19: 6)**، **"شعب مقدس" (تثنية 7: 6)** وهذا قبل اشارته إلى الأساقفة والشمامسة. وقد جاءت كلمة "أساقفة" تقابل **Presbyters** وهي تضم الأساقفة والكهنة معًا، واهباً إياهم النعمة التي تشمل السلام والبركة الإلهية.

"أشكر إلهي عند كل ذكري إيّاكم. دائمًا في كل أدعيتي، مقدمًا الطلبة لأجل جميعكم بفرح. لسبب مشاركتكم في الإنجيل من أول يوم إلى الآن" [3 - 5]

- يقدم القديس بولس ذبيحة شكر لله من أجل عمل الله، ليس فقط معه، بل ومع أولاده المخدومين. فهو كأب يحسب كل عطية وكل نجاح خاص بالشعب، كأن له شخصيًا. وقد ربط بين الشكر والطلبة فهو يشكر الله من أجلهم، من أجل إيمانهم ومحبتهم ونشاطهم في الكرازة "في كل أدعيتي".

- كان يهتم جدًا بالصلاة ويعرف قيمتها، لذلك كان يرفع قلبه بالصلوات من أجل مخدوميه ومتاعبهم ومشاكلهم "بفرح"، فهو يصلي بفرح بالرغم من إنه سجين سياسي، يواجه احتمال الحكم بإعدامه.

- لم يشر هنا إلى ما عاناه في فيلبي مع رفيقه سيلا، حيث مزق الولاة ثيابهما وأمروا بضربهما بالعصي ضربات كثيرة، وألقيا في السجن الداخلي (أعمال 16: 22 - 24). لكن ما يذكره دومًا عمل الله معه لقبول الإيمان منذ دخوله في اليوم الأول، وعلى ما وهبه الله من فرح في وسط الآلام.

- ونلاحظ أنه لم يقل أن سرّ فرحه قبولهم الإيمان وسماعهم لكلمة الوعظ، إنما "مشاركتكم في الإنجيل"، حيث ترجموا الإيمان إلى شركة حب روحي جماعي.

"واثقًا بهذا عينه، أن الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحًا، يكمّل إلى يوم يسوع المسيح. كما يحق لي أن افتكر هذا من جهة جميعكم، لأني حافظكم في قلبي، في وُثقي، وفي المحاماة عن الإنجيل وتثبيته، أنتم الذين جميعكم شركائي في النعمة" [6 - 7]

- سرّ فرح الرسول في خدمته وسلامه الداخلي إدراكه أن الذي يبدأ العمل في الخدمة هو الله، العامل في خدامه، هو يبدأ وهو يكمل الطريق إلى يوم يسوع المسيح أي حتى النهاية، يوم مجيء الرب الأخير، كما قيل عن عمل الله في صموئيل النبي: "وكان الرب معه، ولم يدع شيئًا من جميع كلامه يسقط إلى الأرض" (1 صموئيل 3: 19).

- لم يكن ممكنًا للوُثق أو القيود أن تحجب الحب، بل على العكس أعطته فرصة أعظم للتفكير فيهم، وحرصه على حفظهم في قلبه، والصلاة الدائمة عنهم.

- وهو يقدم الشكر لأجل عمل الله معهم، فالسجن والقيود والآلام لم تسحب قلبه عن مخدوميه، بل قدمت له فرصة أعظم لخبرة الحب الرعوي حتى دون اللقاء معهم جسديًا. والمقصود بالمحاماة توضيح قضايا الإنجيل وشرحها للمقاومين مثل المتهودين، وتثبيته في قلوب التائبين الراجعين.

"فإن الله شاهد لي كيف اشتاق إلى جميعكم، في أحشاء يسوع المسيح" [8]

- يدعو القديس بولس الله نفسه ليكون شاهدًا لما في أحشائه من حب نحو أهل فيلبي، هذا الحب ليس لأنهم يعملون معه كشركائه في نعمة تثبيت الإنجيل، وإنما يحبهم في أحشاء السيد المسيح لأجل أنفسهم حسب السيد المسيح.
- **"فإن الله شاهد لي"**: لم يقصد القديس بولس أنهم يَشُكُّون في محبته لهم حتى يستشهد بالله نفسه، القادر وحده أن يرى ما في قلبه. لكنه يُشهد هنا الله الذي يُسر بأن يجد الشعب كله مع الكهنة لهم موضع خاص في قلب خادمه.
- **"في أحشاء يسوع المسيح"**: الخادم الحقيقي يحمل الشعب في أحشائه، يفرح بخلاصهم، ويتوجع لضعفاتهم. لذا كان إرميا النبي يصرخ: **"أحشائي، أحشائي، توجعني جدران قلبي، يئن فيّ قلبي، لا أستطيع السكوت" (إرميا 4: 19)**، وقد توجعت جدران قلب إرميا، إذ يدرك شوق الله أن يحمل شعبه في أحشائه.
- وبالمثل، فالحب الملتهب في أحشاء **(حنو ولطف)** القديس بولس، هو حب السيد المسيح الساكن فيه والملتهب نحو البشرية. فالحب الرعوي ليس إلا حب السيد المسيح نفسه العامل في قلب الراعي والخادم.

"وهذا أُصلّيه أن تزداد محبتكم أيضًا، أكثر فأكثر في المعرفة، وفي كل فهم. حتى تميّزوا الأمور المتخالفة، لكي تكونوا مخلصين وبلا عثرة إلى يوم المسيح. مملوءين من ثمر البرّ، الذي بيسوع المسيح لمجد الله وحمده" [9 - 11]

- يصلي أن يتمتع مخدوميه بالحب لله، ولبعضهم البعض، كما لكل البشرية، وإذ تمتعوا بفيض النعمة اشتاق أن تلتهب قلوبهم أكثر فأكثر لينالوا بلا توقف. فالنعمة الإلهية تولد عطشًا أعظم نحوها؛ كلما ذاقها المؤمن أراد المزيد **"من أكلني عاد إليّ جائعًا، ومن شربني عاد ظامئًا" (سيراخ 24: 29)**.
- **"تزداد محبتكم... في المعرفة وفي كل فهم"**: المحبة مرتبطة بالمعرفة، فعندما يحب الإنسان موضوعًا يبحث فيه وعنه حتى يلم بكل جوانبه، وعندما يحب شخصًا معينًا يحب أن يعرف كل شيءٍ عنه، وهكذا عندما يحب الإنسان الله تزداد معرفته عنه. يطلب لهم روح التمييز **"لكي تكونوا مخلصين وبلا عثرة"**، أي لهم القلب الواحد، فلا يعرجوا بين الفرقتين. قوله **"مملوءين من ثمر البرّ"**، وليس "ثمار البرّ" لأن ثمر الروح مع تنوعه من حب وفرح وسلام وصلاح الخ... فهو في تناغم معًا، كأنه ثمرة واحدة. والبرّ هو السيد المسيح. فالإنسان المسيحي لابد أن يثمر، ويُثمر في هدوء وسلام، وإذ نُغرس في السيد المسيح، لا نعود نكون بعد أغصان برية، بل أغصان الكرمة الإلهية الحاملة ثمر الروح.

"ثم أريد أن تعلموا أيها الاخوة أن أموري قد آلت أكثر إلى تقدّم الإنجيل. حتى أن وُثقي صارت ظاهرة في المسيح، في كل دار الولاية، وفي باقي الأماكن أجمع" [12 - 13]

- هنا يحدث القديس بولس أهل فيلبي، الذين يحبونه ويحبهم، عن أموره وأخباره خوفًا من وصول أخبار خاطئة عنه. ويوضح لهم إن متاعبه وسجنه وآلامه كانت بخطة إلهية مقصودة لإنتشار الكرازة بالإنجيل عن طريق السجانين، ونجاة الرجال الذين كانوا معه في السفينة (276 رجلاً - أعمال 27 : 37)، وكرازته في روما عاصمة العالم في هذا الوقت. حيث تحول السجن في روما إلى كنيسة صغيرة جمعت اليهود مع الأمم في شخص المسيح الواحد.

- صارت قيود القديس بولس **ظاهرة في السيد المسيح**، فقد عرف الكل أنه لم يُسجن من أجل جريمةٍ ارتكبها، وإنما من أجل **"اسم يسوع"**.

- كما دُعي في دار الولاية **Praetorium** الملحقة بقصر نيرون، لكي يدافع عن نفسه، فكانت فرصة رائعة للشهادة للسيد المسيح أمام رجال الدولة. وإذ كثيرون كانوا يأتون من دول كثيرة إلى دار الولاية، صار القديس بولس شاهدًا للسيد المسيح **"في باقي الأماكن أجمع"**، كما في قصر الإمبراطور نفسه.

"وأكثر الإخوة وهم واثقون في الرب بوُثقي، يجترئون أكثر على التكلّم بالكلمة بلا خوف. أمّا قوم فعن حسد وخصام يكرزون بالمسيح، وأمّا قوم فعن مسرّة" [14 - 15]

- يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [هذا القول يُظهر أنهم كانوا في شجاعة صادقة حتى من قبل، وتكلموا بجرأة، لكن هذه الشجاعة تزايدت بالأكثر. وكأنه يقول: "إن كان الآخرون قد صاروا أكثر جرأة بقيودي، كم بالأولى أكون أنا؟ إن كنت أنا سببًا في جرأتهم، فكم بالأكثر أصير أنا أكثر جرأة؟]

- وقد وجد الحاسدون للقديس بولس فرصتهم للكرازة ليس عن حبٍ وإخلاصٍ، وإنما لكي تتشدد الدولة وتُضيّق الخناق عليه، فلا يخرج من السجن. أو لعلهم وجدوا فرصتهم في سجنه أن يكرزوا ليحتلوا مكانه في الخدمة، فيُنسب نجاح الخدمة إليهم. ولعل بعضهم في روما كانوا من المنادين بالتهود الذين سعوا بكل قواهم إلى تهديد المسيحية، فرأوا في سجنه فرصة للتحرك، فلا يجدوا مقاومة لأفكارهم.

- مقابل هذا أيضًا تحرك المخلصون للعمل بكل قوة عن حب للسيد المسيح ورسوله بولس الأسير. الأولون كانوا يعملون بدافع التحزب ضد بولس، والآخرون يعملون من أجل خلاص البشرية، وفي كلا الحالتين التهبت الكرازة في روما بسبب سجنه.

"فهؤلاء عن تحزّب ينادون بالمسيح، لا عن إخلاص، ظانّين أنهم يضيفون إلى وُثقي ضيقًا. وأولئك عن محبّة، عالمين إني موضوع لحماية الإنجيل" [16 - 17]

- إنهم غير مخلصين في كرازتهم بالسيد المسيح، إذ يكرزون عن تحزب.
- وكلمة **"تحزب"** تشير إلى المنفعة الشخصية والطموح الأناني والتنافس، ظانين إنه سيسقط تحت مخاطر أعظم، فيضيفون إلى ضيقه ضيقًا.
- يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [يا للقسوة! يا لها من إثارة شيطانية! لقد رأوه في القيود، مُلقى في السجن، ومع هذا كانوا يحسدونه. لقد أرادوا أن يزيدوا من الكوارث التي تحل عليه، ويجعلوه موضع غضب أشد. حسنًا يقول: **"ظانين"**، لأن ما حدث على خلاف هذا. لقد ظنوا بالحقيقة أن يحزنونني بهذا العمل، لكنني فرحت إذ امتد الإنجيل... يُمكن أن يُمارس عمل صالح بدافع غير صالح. مثل هذا ليس فقط لا تكون له مكافأة، بل تكون له عقوبة. فإنهم إذ كرزوا بالمسيح بغية أن يسقط الكارز بالمسيح في مخاطر عظيمة، ليس فقط لا ينالوا مكافأة، إنما يسقطون تحت النقمة والعقاب.] وقوله **"إني موضوع لحماية الإنجيل"** أي معين من قبل العناية الإلهية لنشر نور الإنجيل بين الشعوب.

"فماذا، غير أنه على كل وجه، سواء كان بعلّة أم بحق يُنادى بالمسيح، وبهذا أنا أفرح، بل سأفرح أيضًا. لأني أعلم أن هذا يؤول لي إلى خلاصٍ، بطلبتكم ومؤازرة روح يسوع المسيح" [18 - 19]

- لم يكن ممكنًا للحسد أو مقاومة الحاسدين أن تسيء إلى قلب رسول الأمم، لكنه يفرح من أجل الكرازة، حتى وإن عمل المتهودون بكل قوة، فإن الله حتمًا يستخدم كل هذه الجهود، مهما كانت النية، لبنيان ملكوته وخلاص الكثيرين.
- إنه يفرح، وسيبقى في فرحه من أجل مجد الله المنتشر، حتى وإن مارس البعض كرازتهم بنية الحسد والمقاومة له.
- يشرح القديس يوحنا الذهبي الفم: [إنني (بولس) ليس فقط لا أحزن ولا أنهار تحت هذه الأمور، إنما بالحري **أفرح بل وسأفرح** ليس إلى حين بل افرح دومًا بسبب هذه الأمور. **"لأني أعلم أن هذا يؤول لي إلى خلاصٍ"**، هذا الذي سيتحقق حينما تؤول عداوتهم وحسدهم لي إلى تقدم الإنجيل... ثم يقول **"بطلبتكم ومؤازرة روح يسوع المسيح"**: أنظروا تواضع فكر هذا الطوباوي، فإنه كان قبلاً يجاهد في صراع، أما الآن فها هو يقترب من إكليله، لقد قدم ربوات الأعمال البطولية، إذ هو بولس، فماذا يمكن لهذا الأمر أن يضيف اليه؟ ومع هذا يكتب إلى أهل فيلبي: **"لعلي أخلص بطلبتكم"** أنا الذي اقتنيت خلاصًا خلال أعمال لا حصر لها.]

"حسب انتظاري ورجائي إني لا أخزى في شيء، بل بكل مجاهرة، كما في كل حين كذلك الآن يتعظّم المسيح في جسدي، سواء كان بحياةٍ أم بموتٍ" [20]

- شجاعة المؤمنين وقبولهم الألم بفرح وبهجة قلب يمجد السيد المسيح المصلوب. هؤلاء يمجدونه حتى في أجسادهم إن عاشوا أو حتى ماتوا، أي إن أُعطيت لهم فرصة للعمل والكرازة، أو استشهدوا من أجل اسمه.

- يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [حياة الرسول حتى في السجن كما استشهاده لن يفقده رجاءه ولا ينزع عنه جرأته في الشهادة للمخلص. هذا "الرجاء لا يخزي" (رومية 5: 5)، أي مهما حدث فهو لن يخزى، لأنهم لن يسودوا عليه، بل بكل جرأة يقول "كما في كل حين كذلك الآن يتعظم المسيح في جسدي"... حقًا لقد توقعوا أن يُسقطوا بولس في هذا الفخ، وأن يطفئوا كرازة الإنجيل كما لو كان لمكرهم أية قوة... "سواء كان بحياة أم بموت" لم أقل أن حياتي وحدها ستعظمه، بل موتي أيضًا. يقصد بقوله: "بحياة" الوقت الحاضر، فإنهم لن يقدروا أن يحطموننني، وإن أهلكوني فالمسيح أيضًا سيتعظم بموتي. كيف هذا؟ بحياة، لأنه يخلصني؛ وبموتي لأنه لن يقدر الموت أن يدفعني على جحده، فقد وهبني الاستعداد للموت، وجعلني أقوى من الموت.]

"لأن لي الحياة هي المسيح، والموت هو ربح. ولكن إن كانت الحياة في الجسد هي لي ثمر عملي، فماذا اختار؟ لست أدري. فإني محصور من الاثنين: لي اشتهاء أن انطلق، وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جدًا" [21 - 23]

- الحياة هنا بالنسبة للقديس بولس فرصة للكرازة بفرحٍ وسط الآلام. والموت فرصة للانطلاق للقاء مع السيد المسيح وجهًا لوجه. ففي حياته أو موته كل ما يشتهيه هو اقتناء السيد المسيح بكونه حياته.

- ونلاحظ هنا حيرته في أيهما أفضل له: الحياة حيث تمتلئ حياته بالعمل الصالح والثمر المتكاثر لصالح السيد المسيح، وهل يفضل الحياة لبشارة البعيدين ورد الضالين ومشاركة المتألمين، أم الموت الذي يريحه من أتعابه وينقله إلى الأمجاد؟

- لقد تمتع القديس بولس برؤى كثيرة، وظهر له الرب في طريقه إلى دمشق، كما ترآى له في الهيكل حيث أكد له دعوته لخدمة الأمم (أعمال 22: 17 - 21). لكن ما كان يملأ حياته عذوبة فهو رؤيته لسيده بعيني القلب خلال حياته اليومية. كان بهاء مجد سيده يعكس على أعماقه مجداً، فيرتفع "من مجدٍ إلى مجدٍ" (2 كورنثوس 3: 18). واضح أنه كان يميل بشوقٍ ملتهبٍ نحو اختيار الموت استشهادًا لأجل السيد المسيح، فالأفضل له هو الرحيل ليبقى معه في الفردوس، لا ليودع العالم بكل شروره وضيقاته، وإنما لينعم بالحياة مع الله في أروع صوره.

"ولكن أن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم. فإذ أنا واثق بهذا، أعلم إنّي أمكث وأبقى مع جميعكم، لأجل تقدّمكم وفرحكم في الإيمان. لكي يزداد افتخاركم في المسيح يسوع فيّ، بواسطة حضوري أيضًا عندكم" [24 - 26]

- مع كل هذا الحنين فإنه يحسب رحيله مكسبًا له، وبقاءه مجاهدًا مكسبًا لهم. وقد تدرب القديس بولس على البذل لحساب إخوته، بهذا كان القرار فيه اختيار البقاء من أجل إلزام الحب الأخوي في الرب.

يعلق القديس يوحنا ذهبي الفم على كلمة "فيّ"، [فإن تقدمهم وفرحهم في الرب هو في القديس بولس، بمعنى أن بقاءه معهم ليس عن تغصبٍ، وإنما هو أنفع له "فإنني أتمجد أكثر عندما تتقدمون أكثر"... وقد قال هذه الكلمات لكي يُعدهم لقبول موته عندما يحل الوقت... ليس الموت صالحًا، إنما ما هو صالح هو أن نكون مع المسيح بعد الموت. ما يتبع الموت إما ان يكون صالحًا أو شريرًا. ليتنا لا نحزن لأجل الموتى ولا نفرح بالأحياء، إنما نحزن على الخطاة، ليس فقط عند موتهم بل حتى وهم أحياء. ولنفرح بالأبرار ليس فقط وهم أحياء، وإنما حتى عند موتهم. فالخطاة أينما وجدوا هم بعيدون عن الملك، فتُسكب الدموع عليهم. وأما الأبرار فهم مع الملك سواء كانوا هنا أو هناك.]

"فقط عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح، حتى إذا جئت ورأيتكم أو كنت غائبًا أسمع أموركم، أنكم تثبتون في روحٍ واحدٍ، مجاهدين معًا بنفسٍ واحدةٍ لإيمان الإنجيل. غير مخوفين بشيء من المقاومين، الأمر الذي هو لهم بيّنة للهلاك، وأمّا لكم فللخلاص، وذلك من الله" [27 - 28]

- كلمة "فقط" تربط بين هذه الآية وما قبلها، فإن كان القديس بولس قد فضّل البقاء في الجسد من أجل خير أولاده، فإنه يريد أن يرى كل واحدٍ منهم إنجيلاً معاشًا. ونلاحظ أن كل ما يقوله يحوله إلي أمرٍ واحدٍ، وهو التقدم في الفضيلة؟

- وهنا يوصي أولاده أن يسلكوا ويعيشوا بحسب وصايا الإنجيل ودعوته فيصيروا قديسين، وهذه أعظم كرازة صامتة بالقدوة الحسنة. وإذ يجاهدون بقيادة الروح القدس وبروح الوحدة لن يقدر المقاومون أن يقفوا أمامهم، ولا الخوف أن يتسلل إليهم. وحسنًا يقول: "مُخَوَّفِينَ"، لأن هذا ما يسقطه علينا أعداؤنا. كل ما يقدموه هو أن يخيفونا فقط. ولكن ليس هناك ما يخيفنا، مهما حدث، مهما تكن المخاطر.

- عندما لا يغلب المضطهدون من يضطهدونهم، ولا ينتصر واضعو الخطط على من هم موضع خططهم، وأصحاب السلاطين على من هم تحت سلطانهم، فهذا دليل ذاتي أن هلاكهم على الأبواب، وأن قواتهم كلا شيء، وما قاموا به من جانبهم باطل وضعيف؟ ولكن من جانبكم فهو خلاص من عند الله.

"لأنه قد وُهب لكم لأجل المسيح، لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضًا أن تتألّموا لأجله. إذ لكم الجهاد عينه الذي رأيتموه فيَّ، والآن تسمعون فيَّ" [29 - 30]

- **"لأنه"**: أي أن الثبات في روح واحد والجهاد بنفسٍ واحدةٍ، والشجاعة في مواجهة المقاومين لابد أن يترتب عليها الاضطهاد والألم. وقد **"وُهب لكم"**، أي أنعم الله بها عليكم، فهنا الألم لا يظهر كعقابٍ من الله، إنما هو علامة محبة.
- الإيمان كما السماح بالألم كلاهما هبة من قِبل الله، إنهما أخان رفيقان، يرافقان المؤمن كما الكنيسة ككلٍ في الطريق إلى السماء.
- يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: [التألم من أجل المسيح هو نعمة، هو عطية النعمة، نعمة مجانية. إذن لا تخجلوا من عطية النعمة، فإنها أكثر عجبًا من قوة إقامة الموتى وصنع العجائب. فإنني بهذه أنا مدين، أما هنا (بالألم) فالمسيح مدين لي. لهذا يليق بنا ليس فقط ألا نخجل بل نفرح بنوالنا هذه العطية. إذ يتألمون من أجل السيد المسيح يرون في الرسول بولس مثلاً رائعًا، سواء إن كانوا قد رأوا ذلك بأعينهم أو سمعوه عنه... لديكم مثال (**إذ ترونه فيَّ**). هنا أيضًا يرفعهم إلى فوق، مظهرًا لهم أن جهادهم في كل موضع هو ذات جهاده، كلاهما جهاد قوي، وهم بهذا يتحدون معه في احتمال المشقات. لم يقل لهم: "سمعتموه عني"، بل **"رأيتموه فيَّ"**، إذ جاهد كثيرًا في فيلبي.]

"أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني" (فيلبي 4: 13)